# ابن السراج البغدادى
## ونظرات فى تراثه الأدبى

دكتور على محمد على طلب

**١ ـ التعريف بابن السراج : (١)**

هو أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر السراج المعروف بالقارىء البغدادى ، كان حافظ عصره وعلامة زمانه ، وهو الاديب والشاعر الحاذق صاحب التصانيف العجيبة مثل كتاب ( مصارع العشاق ) وغيره .

ولقد ولد ابن السراج ببغداد سنة ٤١٧ هـ أو في أول سنة ٤١٨ هـ وقرأ القرآن واتقن قراءته واقرءه سنين ، وعنى بالحديث النبوى ، ورحل في طلبه الى مكة والشام ومصر ، وقد حدث عن أبى على بن شاذان وأبى القاسم بن شاهين والخلال والبرمكى والقزوينى وابن غيلان وغيرهم ، وأخذ عنه خلق كثير ، وروى عنه الحافظ أبو طاهر السلفى رحمه الله تعالى ، وكان يفتخر بروايته مع أنه لقى أعيان ذلك الزمان وأخذ عنهم ، وخرج له الخطيب البغدادى فوائد في خمسة أجزاء تسمى « السراجيات » .

---

(١) انظر فى ترجمة ابن السراج : معجم الأدباء لياقوت الحموى ١٥٣/٧ وما بعدها ط دار المأمون ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٧/١ وما بعدها ط دار صار بيروت ، بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ٤٨٥/١ ط الحلبى القاهرة ١٩٦٤ ، وطبقات الحنابلة لابن رجب ١٢٣/١ .

يقول ابن عساكر فيما ذكره ياقوت الحموى : قرأت بخط غيث بن على الصورى : جعفر بن أحمد بن الحسين ذو طريقة جميلة ومحبة للعلم والأدب ، وله شعر بألاس به ، وخرج له شيخنا الخطيب فوائد ، وتكلم عليها في خمسة أجزاء ، وكان يسافر الى مصر وغيرها ، وتردد الى ( صور ) عدة دفعات ، ثم قطن بها زمانا ثم عاد الى بغداد وأقام بها الى أن توفي (١) .

وينقل السيوطى عن ابن عساكر قوله في ابن السراج : كان عالى الطبقة في الحديث والقراء والنحو واللغة والعروض (٢) .

ويذكر ياقوت طرفا من أخبار ابن السراج منها قوله : أنبأنا أبو محمد عبد العزيز الأخضر ـ شيخنا رحمه الله ـ قال : سمعت ابا الكرم المبارك بن الحسن بن الشهرزورى المقرىء يقول : كنت أقرأ على ابى محمد بن محمد السراج ، واسمع منه : فضاق صدرى منه لحاله ، فانقطعت عنه ، ثم ندمت وقلت : يفوتنى منه بانقطاعى عنه فوائد كثيرة ، فقصدته في مسجده المعلق الحاذى لباب النوبى ، فلما وقع نظره على رحب بى وأنشدنى لنفسه :

| | |
|---|---|
| وعدت بأن تزورى بعد شهر | قرورى قد تقضي الشهر زورى |
| ومـوعد بيننـا نهـر المعلى | الى البلد المسمى شهر زور |
| فأشـهر صـدك المحتوم دق | ولكن شهر وصلك شهرزور (٣) |

ولقد كانت لابن السراج مكانة عظيمة في عصره ، فقد كان أديبا

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٥٣/٧ .
(٢) بغية الوعاة للسيوطى ٤٨٥/١ .
(٣) معجم للأدباء لياقوت ١٥٧/٧ وما بعدها .

شاعرا يحب الجمال ويتحدث عن العاطفة في وقار واتزان ويدعو الى العفاف والصون ، فلا يخالف القواعد المرعية والتقاليد السائدة والتعاليم السمحة التى تربى في ظلالها ونشأ عليها ٠

وكان الى جانب ذلك فقيها متمكنا ومحدثا ثقة ولغويا ممتازا بفهم أسرار لغته فهما صائبا ٠

ولقد توفي ابن السراج في شهر صفر سنة خمسمائة من الهجرية النبوية ، ودفن بمقبرة باب ابرز ببغداد (١) ٠

## ٢ ـ ابن السراج الشاعر :

لقد ساعدت عدة عوامل في تكوين شاعرية ابن السراج : منها الموهبة التى منحه الله اياها ، والتى قادته الى الاحساس بدأ يحيط حوله من مؤثرات ، وأن يعبر عن ذاتيته ومشاعره وأحاسيسه في شعر يسيل رقة وعذوبة ، وذلك بالاضافة الى ثقافته التى كان له منها حظ موفور ، فقد كان ملما بأصول العربية وقواعدها وأسرارها وحفظ الكثير من الشعر ، وروى كثير من الأخبار والنوادر وأحوال العشاق ووعى الكثير من أمثال العرب وأيامهم وأحوالهم ، وهذا كله قد ساعد في صقل موهبته وصفاء الشاعرية عنده ٠

والشعر الذى ورد في كتب التراث من شعر ابن السراج يدور معظمه حول الغزل العذرى الذى يتمسك فيه صاحبه بالعفاف وتصوير المشاعر والاحاسيس الفياضة بالعاطفة النبيلة والاخلاق السامية ، ولا نجد له تصويرا حسيا لمفاتن المرأة وسحرها ودلالها ، فقد تخلص

---

(١) انظر وفيات الأعيان ١/٣٥٨ ، ومعجم الأدباء ٧/١٥٤ ٠

في شعره من درك الهوى وترفع عن اللذات البدنية والشهوات الدنية، ولا عجب في هذا فقد كان ابن السراج ورعا تقيا يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة والظرف ولطف الأخلاق ، ومما يؤكد ذلك قوله :

أفلح عبد عصي هواه ... وفاق في دينه وكاسا
ولم يرح مدمنا لخمر ... ينهل طاسا ويعل كأسا (١)

فهو يدعو الانسان الى عصيان هواه ، وأن يكون كيسا حكيما متسلحا بسلاح الدين ، فلا يقع في الخطايا والزلات ، ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقى في درجات الهدى بقهره للشيطان والانتصار عليه .

ويبدو في شعر ابن السراج روح الفكاهة والظرف وخفة الروح حيث يقول في شيخ متصاب يدعى الشباب وهو يخضب لحيته التى عمها الشيب : (٢) .

ومدع شرخ شباب وقد ... عممه الشيب على وفرته
يخضب بالوشمة عثنونه (٣) ... يكفيه أن يكذب في لحيته

وشعر ابن السراج في مجال الغزل يتم عن عاطفة رقيقة ، فغلبه خصائص الشعر العذرى واضحة ، فهو يؤمن بالطهر والعفاف ، ونجد الحديث عن الأحبة واللهفة الى لقائهم والحنين الى دورهم، ومخاطبة

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٥٤/٧ ، كاسا فى البيت الأول : أصبح كيسا حكيما حصيفا ، النهل : الشرب الأول ، الطاس : الاناء يشرب فيه ، العل: الشرب ثانيا بعد الأولى تباعا .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٥٨/١ .

(٣) العثنون : اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين .

الديار المقفرة بنبعد الاحباب عنها ، ووصف ناطيف والنسيم الذى يهب فيهيج الاشواق ويجد الحنين ، وهذه السمات ظاهرة في شعره الغزلى الا أننا نعتب عليه احيانا التكلف والصنعة والاكثار من المحسنات البديعية ، وان كان هذا لا يغض من قدر شعره في الحكم عليه بوجه عام ٠

ويبدو كذلك في شعر ابن السراج حبه للتقليد والاحتذاء ، وقد تأثر بما قرأ من أشعار السابقين وحفظت ذاكرته الكثير من أخبارهم وأفعالهم ، والتقليد كما نعلم فطرة مركوزة في الطباع كافته في النفوس ، ولولا الاحتذاء والتقليد لما كانت فنون الادب : فالشعر والنثر انما يصاغان على قواعد وأساليب خاصة ، وما مراعاتهما الا اقتداء الأديب عن سبقه وترسم خطاه سواء أكان اقتداؤه مقصورا أم كان غريزيا فيه (١) ٠

فمن شعره الوجدانى الذى يميل فيه الى التقليد لشعراء النجديات والحجازيات قوله يصور حنين ناقته لمنازلها في نجد والحجاز : (٢) ٠

قضت وطرا من أرض نجد وأمت ... عقيق الحمى مرخى لها في الأزمة
وخبرها الرواد أن لحاجر ... حيا نورت منه الرياض فحنت
ولاح لها برق من الغور وهنا ... كشعلة نار للطوارق شبت
وغنى لها الحادى فأذكرها الحمى ... وأياها فيه وساعات وجرة
وقد شركتنى في الحنين ركائبى ... وزدن علينا رنة بعد رنة

---

(١) انظر فى أصول الأدب للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٣٨ ط الرسالة ١٩٥٢ القاهرة ٠

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٥٥/٧ وما بعدها ٠

ألاليت شعرى هل تعود روأجعا ليالى الصبا من بعد ما قد تولت (١)

والحنين للأحباب يجرى في الأبيات كما يجرى الماء والخضرة في الاغصان النضرة ، وقد جعل ناقته أو دابته تفسها تحن حنينا لا ينقطع الى منازلها ، وهو حنين يضاعفه في نفسها ما يلوح لها من برق ليلا يصدر من جانب الغور وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد . كما يضاعف هذا الحنين شدو الحادى وغناؤه حيث تذكر أيام محبوبته في وجرة وغير وجرة ، ويصرح بأن ناقته وركائبه تشاركه في الحنين بل تزيد عليه رنة بعد رنة فيأس لها ولنفسه ويتمنى لو عادت ليالى الصبا ، وكيف تعود ، وقد تولت الى غير مآب ، ولم يبق الا الوجد والحنين الذى يتقد في فؤاده (٢) .

ويمضي بنا ابن السراج في غزله الرقيق وهذه المعانى الفياضة بالحنين والشوق وأيام الصبا وتذكار الحب الأول حيث تعود به الذاكرة الى أرض الذكريات الغالية فيقول في احدى نجدياته : (٣) .

حبذا نجد بلادا لم نجد راحة للقلب في أرض سواها
فاذا ما لاح منها بارق هاج أشواقى أو هبت صباها
لست أنسي اذ سليمى جارة تبذل الود وتصفينا هواها
ثم لما شطت الدار بها (٤) ورماها البين من حيث رماها
أرسلت طيف كرى لكنه زارنا والعين قد زال كراها(٥)

---

(١) معاني المفردات : أمت : قصدت . حاجز : من منازل الحجاز . حيا :أى غيثا . الغور : غور تهامه وهو ما انحدر منها غربا . نورت : أزهرت . موهنا : أى بعد نصف الليل . الطوارق : الضيوف . وجرة : موضع بنجد . الركائب : الابل .

(٢) انظر عصر الدول والامارات للدكتور شوقى ضيف ص ٤١١ ط دار المعارف ١٩٨٠ .

(٣) معجم الأدباء ١٦٠/٧ وما بعدها .

(٤) شطت : بعدت .

(٥) الكرى : النوم .

ونحس في هذه الأبيات بصفات العاطفة ورقة الاحساس والمشاعر ، وكما نحس بانسياب المعانى الفياضة بالحب والعاطفة بلا تكلف ولا تعمل ، ولا شك أن للصدق الشعورى هنا دورا في قوة التأثير وجمال التصوير والتعبير ، ونحن نجد في هذه الابيات راحة نفسه ومسرة قلبه في هذا الموطن العزيز عليه ، وانه ليذكر أيام محبوبته وما كان يغمره فيها من متاع وسعادة ، حتى اذا لاح برق أو هب نسيم صبا هاجت به أشواقه ، وأعادت اليه ذكرى حبه لسليمى حين كانت تبادله الود والهوى • وقد ضاع كل هذا الحلم منه ، وضاع منه النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجده ويحتمل آلامه وعذاب الحب وحده (١) •

وله مع طيف الحبيبة حديث ، فهو يشكو للطيف ما يلاقيه من حرقة العشق وحرارة الشوق فيقول : (٢) •

| | |
|---|---|
| حبذا طيف سليمى اذ طوى | حذر الواشي السرى من ذى طوى |
| وأتى الحمى طروقا وهم | بين أجزاع زرود فاللوى |
| بت أشكو ما ألاقيه الى | طيفها الطارق من مس الجوى |
| أشكر الأحلام لما جمعت | بيننا وهنا على رغم النوى |
| أيها العاذل دعنى والهوى | ليس مشغول وخالٍ بالنوى (٣) |

وهو كما نرى ينعم بزيارة الطيف حيث يأتيه فيخفف عنه ما يجده من حرقة الوجد والشوق ، وحينما يعز اللقاء ينعم بلقاء محبوبته في المنام ، وهو بهذا يكتفى بعد نأى أحبابه بزيارة الطيف

---

(١) انظر عصر الدول والامارات ص ٤١١ •
(٢) معجم الأدباء ٧/ ١٦٠ وما بعدها •
(٣) معاني المفردات : ذو طوى ، أجزاع ، زرود ، اللوى : أسماء أماكن • الجوى : حرارة الشوق •

وبثة شكواه والامه ، وزيارة من يهوى في منامه ، ولهذا فهو يرد عنه لوم العاذل فليس الشجى كالخلى في ميزان العشق الهوى ٠

ويمكننا أن نقول : ان كثيرا من شعر الغزل عند ابن السراج شعر مطبوع ينم عن عاطفة منعمة بالحب الصادق والصفاء الوجدانى خاصة نجدياته وحجازياته التى وردت عنه في صورة ( مقطعات ) ، وفيها نجد لوعة الفراق وألم البعد والحنين والبكاء لفراق الأحباب ووصف ما يهب من النسيم الذى يحمل انفاس الاحبة ، ونجد فيها الحديث عن ذكريات الهوى الذى انتهت أيامه ورحلت عن دنياه أوقاته بما فيها من البهجة والسرور والسعادة ٠

ويدعو ابن السراج في حديثه عن العشق الى العفاف والتمسك بالفضيلة ، ويفرق في مقطوعة له بين صحيح الحب الصادق العفيف وبين الاعجاب بالصورة وعشق الجسد والسعى وراء اللذات حيث يقول : (١) ٠

قل للظبى بذى الارا ... ك اذا مررت بهن جائز
ألكن قتل العاشقين (م) ... محلل في الشرع جائز
أترى متى أنا منكم ... بوصالكم بافوز فائز
ولقد خلوت بها وأبعد (م) ... ت العذارى والعجائز
ليلا فكان عفافنا ... مابيننا والصون حاجز
حاشا صحيح الحب يدو ... ما أن يقام مقام ما عز (٢)

---

(١) مصارع العشاق لابن السراج ١/١٢٢ وما بعدها تحقيق الأستاذين أحمد نجاتى وأحمد مشالى ط لجنة البيان العربى نشر الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦ ٠

(٢) الأراك : شجر معروف يستاك بأغصانه ٠ جائز الأولى من جاز المكان يجوزه سلكه ٠

ويعطينا ابن السراج صورة من صور العفة والفضيلة ، فربما التقى الحبيبان وافترقا عن طهر وعفاف ، ولم يدنسا حبهما بالرجس والخنا ، وننظر في أعجاب للبيت الاخير ، اذ معناه حاشا للحب الصادق أن يتردى في الخطيئة وأن يقف ( ماعز بن مالك ) الذى وقع في الزنا وأقر بجريمته فرحمه النبى صلى الله عليه وسلم ، وجمال البيت في التضمين الذى أبدع الشاعر فيه ، وأكثر أشعار ابن السراج يتضح فيها الاقتناع بالعفاف ، والتى تصدر عن مبادىء الاسلام وأخلاقه التى تتغلغل في قلبه وفؤاده .

ويبدو تأثر ابن السراج بقصص العشاق من العرب واضحا جليا في بعض شعره ، ولا عجب في ذلك ، فقد اشتمل كتابه ( مصارع العشاق ) على أخبارهم وأشعارهم وأحاديثهم ، وتتبع مصائرهم أو مصارعهم ، وملك عليه هذا الأمر كثيرا من وقته واهتمامه ، ومن حديثه عن العشاق قوله : (١)

كم دم للعشاق اهريق بالهجر (م) ... الى ركن كعبة غراء
ودماء العشاق مطلولة ليس (م) ... لها فاعملوا من أولياء
سل بمجنون عامر وأخى عذ ... رة ما كان منه مع عفراء
وجيل وقيس لبنى وغيلا ... ن وخلق يفوتهم احصائى (٢)

---

(١) مصارع العشاق ٣٩٩/١ وما بعدها .

(٢) مجنون عامر هو مجنون ليلى : قيس بن الملوح . أخو عذرة : هو عروة بن حزام العذرى وصاحبته عفراء ابنة عمه . جميل هو ابن معمر العذرى وصاحبته بثينة . قيس لبنى هو قيس بن ذريح العذرى وصاحبته بنت الحباب الكعبية . غيلان : هو ذو الرمة وصاحبته فى بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقرية .

وهذه الابيات من شعر ابن السراج المتكلف لانهما من الغزل المصنوع الذى صنعه في شكل رسالة كتبها الى أحد الادباء من أصدقائه ، ولكننا عرضنا لها لبنين تأثر ابن السراج في شعره بقصص العشاق وأخبارهم ، بل تأثر بهم في الفاظه ومعانيه واخيلته كما لاحظنا ذلك في الصور التى عرضنا لها وقمنا بتحليلها .

ويضم كتاب « مصارع العشاق » كثيرا من شعر ابن السراج ، والشاعر حين يتحدث عن لون من الوان العشق أو حدث الم بأحد العشاق ، وتكون الفرصة سانحة للتعبير عن رأيه ، فيعبر عن رأيه شعرا ، وهكذا كان منهج ابن السراج في هذا الكتاب ، فنحن نعد شعره آراء له وتعليقات على ما جاء فيه من أخبار وقصص مرت بالعشاق خاصة والعرب عامة . ونراه حينما يذكر شعرا لاحد الشعراء يعارضه أحيانا بشعره على وزنه وقافيته ، فهو حين يذكر لابن دريد (١) قوله (٢) :

صارمته فتواصلت أحزانه ... وهجرته فتهاجرت أجفانه
قالت تعرض لك شيطان به ... بل أنت حين ملكته شيطانه
قد ضل عنه فؤاده فاستخبرى ... عينيك أين محله ومكانه ؟

نراه يعارض ابن دريد فيقول على الروى والوزن :

بالحزن هاجت للفتى أحزانه ... وجفت لذيذ رقادها أجفانه
ياجارة الحى الذين ترحلوا ... سحرا فأوحش ربعهم غزلانه

---

(١) ابن دريد : هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدى من أئمة اللغة والأدب قيل فيه : انه أشعر العلماء وأعلم الشعراء ، وهو صاحب كتاب الجمهرة فى اللغة وغيره من الكتب القيمة والمؤلفات الممتعة ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ هـ وتوفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ .

(٢) مصارع العشاق ٣١٩/١ .

هل تعلمين لداء قلبي آسيا ... فاليوم حين ترحلوا بحرانه
كتم الهوى خوف العزول ولومه ... حتى أضر بجسمه كتمانه (١)

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على براعة الشاعر وما تميز به من حس مرهف ، ووجدان يقظ وشاعرية مطبوعة واحساس دقيق وذوق رفيع .

ولم يكن شعر الغزل غرضا مستقلا عند ابن السراج ، فقد كان الى جانب ما قدمنا من المقطعات الغزلية يأتي في صورة المقدمات الغزلية التي تسبق غرضا آخر كالمديح مثلا ، ومن ذلك مقدمة قصيدته التي يمدح بها أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله (٢) حيث يبدأ القصيدة بالنسيب فيقول : (٣)

سبحت حين أبصرت من دموعي ... اج بحر قد أعجز السباحا
ثم قالت لربها في خفاء ... ليت هذا الفتى قضي فاستراحا
ايها الراحلون ردوا على المشتا (م) ... ق قلبا أثخنتموه جراحا
كتم الوجد جهده فاذا الد (م) ... مع بأسرار وجده قد باحا
باعكم قلبه الكئيب سفاها ... فأخذتم رقاده استرباحا (٤)

---

(١) معاني المفردات : آسيا : اسم فاعل من آسا الجرح عالجه وداواه وأصلحه . بحران المريض : هو عند الاطباء التغير الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادة ، والبحران في الأصل : لفظ مولد وهو كلمة يونانية منعاها الانتقال من حالة الى أخرى في وقت مضبوط بحركة علوية .

(٢) المقتدى بالله (٤٤٩ ـ ٤٨٧ هـ ) هو أبو القاسم عبد الله بن محمد ابن القائم بأمر الله ولقبه ( المقتدى ) وكان قوى النفس عظيم الهمة له علم بالأدب والشعر ، وتولى الخلافة سنة ٤٦٧ هـ الى أن توفى فجأة سنة٤٨٧هـ

(٣) مصارع العشاق لابن السراج ١/٣٠ .

(٤) المفردات : ترب الفتاة : نظيرتها في مثل سنها . قضى : مات . اثخنتموه جراحا : أكثرتم جراحه . السفاه بالفتح : عدم التوفيق في انفاق المال ونحوه . استرباحا : أي ربحا .

والملاحظ أن هذا الغزل من الغزل الصناعى الذى يصنعه الشعراء تقليدا للشعراء السابقين ، ويبدو فيه الصنعة والتكلف والخلو من العاطفة والصدق الشعورى ٠

ونحن نلاحظ فرقا واضحا بعين شعره الغزلى المطبوع وبين شعره الصناعى الذى جاء به في أول قصائد المديح التى مدح بها المقتدى وامامه أحمد بن حنبل وغيرهما ـ الا ان هذا المديح لم يصل الينا ، وقد أشار اليه في كتابه « مصارع العشاق » وهو يذكر مطالعة الغزلية لهذه القصائد ٠

ولقد تميز شعره الغزلى المطبوع بجمال العبارة ورقة الالفاظ والصدق العاطفى ، والموسيقى الرقيقة التى تحمل رقة المشاعر والاحاسيس دون تكلف وتصنع ، ومن ذلك قوله : (١)

بان الخليط فأدمعى ... وجدا عليهم تستهل ( ٢ )
وجدا بهم حادى الفرا ... ق عن المنازل فاستقلوا (٣)
قل للذين ترحلوا ... عن ناظرى والقلب حلوا
ودمى بلا جرم أتيت ( م ) ... غداة بينهم استحلوا
ما ضرهم لو أنهاروا ... من دمعاء وصلهم وعلوا

فنحن نراه في هذه الأبيات شاعرا رقيقا يتجشم أهوال العشق ويحتمل آلامه ويذرف دموعه السجام ، ثم يعرض علينا صورة من صور العاشقين المغرمين في صدق فنى وشعورى ، فقد رحل أحبابه

---

(١) وفيات الأعيان ١/٣٥٧ ٠
(٢) تستهل : تنصب ٠
(٣) استقلوا : ارتحلوا ٠

ولا تزال دموعه تساقط من عينيه : وهل يملك سوى البكاء والدموع الغزيرة ؟ ، ولقد كان في حلم عمره وملأ عليه فؤاده ، وأفاق منه على الرغم من أنهم قد استباحوا دمه وصرعوه بالألحاظ الفتاكة وسهام العيون القتالة ، ويتوجه في النهاية بقوله: ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم بالحب والحياة معهم ، ومع ذلك فسيظل يذكرهم بل سيظل حبهم في قلبه حارا قويا • انه الحب الصادق والعاطفة الرقيقة التي تحمل أنبل المشاعر وأرق الاحاسيس •

ولابن السراج البغدادي بعض قصائد في ( الرثاء ) الا أنه قصر رثاءه على محبوبته التي فارقت الحياة ، فتركت له الاحزان واللوعة والحنين ، ويبدو في هذا اللون من شعره مشاعر الوفاء لذكرى أحبابه الذين رحلوا وتجرعوا كأس المنون ، ومن ذلك قوله : (١)

دع الدمع بالوكف ينكى الخدودا ... فان الأحبة أضحوا خمودا
دع بهم هاتف الحادثات (م) ... فبدلهم بالقصور اللحودا
دنت منهم نوب للردى ... فأفنت ضعيفهم والشديدا
دموع يكفكفهن الأسي ... عليهم غزارا تروى الصعيدا
دجاهم وصبعهم واحد ... وقد مزق الدود لاتهم جلودا (٢)

ونستطيع بعد ذلك كله ان نعد ابن السراج شاعرا واكب عصره وملك أسباب الشاعرية ، ولا يغض من قدرة أنه يميل أحيانا الى الصنعة والاكثار من المحسنات البديعية ، فهو يجارى الشعراء في

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموى ١٥٨/٧ وما بعدها •
(٢) معانى المفردات : الوكف : مصدر وكف الماء : سال قطرة قطرة والمراد هنا : الدموع • ينكى : من نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ • الصيعد : التراب •

عصره ، الا أن شعره في مجال الغزل كان مطبوعا في كثير منه ، وقد تميز بألفاظه الرقيقة ومعانيه المعبرة ومشاعره الفياضة واحساسه الصادق واخلاقه العالية وسجاياه الرفيعة التي استمد اصولها من ايمانه القوى وعفته وتقواه ، ومن ثم تتضح في شعره الغزلي خصائص الحب العذرى ، فهو يؤمن بالعفاف والصون والحفاظ على العهد ، والتمسك بالفضيلة وعدم التردى في أدران الرذيلة وانتهاك الاعراض والافصاح عن الرغبات والشهوات ٠

**٣ ـ أشهر مؤلفاته الأدبية :**

لابن السراج كثير من المؤلفات المتنوعة منها كتاب مصارع العشاق ، كتاب زهد السودان ونظم أشعارا كثيرة في الزهد والفقه منها نظم التنبيه في الفقه ونظم المناسك وغير ذلك (١) ٠

ويهمنا ان تحدث عن أشهر مؤلفاته الادبية وهو كتاب ( مصارع العشاق ) وهو كتاب جامع يحتوى على كثير من أخبار العرب وأشعارهم وأمثالهم ، وكثير من أخبار العشاق والصوفيين ، كما يحتوى على بعض الالوان النقدية والأدبية الاخرى ٠

ولقد قسم ابن السراج كتابه ( مصارع العشاق ) الى اثنين وعشرين جزءا في كل جزء منها طائفة من خبار العشاق ، وتتخلل هذه الاخبار الادبية أبيات ومقطوعات شعرية لابن السراج ولغيره من الشعراء المشهورين وغير المشهورين ٠

ونلاحظ ان أبن السراج يصدر كل جزء من أجزاء كتابه ببعض

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٥٣/٧ وما بعدها ، بغية الوعاة ٤٨٥/١ ٠

أبيات من شعره تتضمن الاشارة الى موضوع الباب أو الجزء الذي يتناوله ، فقد كتب في صدر الجزء الاول : (١)

هذا كتاب مصارع العشاق ... صرعتهم يوما نوى وفراق
تصنيف من لدغ الفراق فؤاده ... وتطلب الراقي فعز الراقي
فاذا تصفحه اللبيب رثى لهم ... أسرى الهوى أيسوا من الاطلاق

وكتب في صدر الجزء الثالث : (٢)

مصارع العشاق مجموعة ... فيها لمن يقرأها عبرة
جمع عفيف الحب يطوى الهوى ... لو لم تكن تنشره الدبرة
غرامه ثاو دفيم وان ... أعدمه يوم النوى صبره

وكتب في صدر الجزء السادس : (٣)

كتاب صرعى الهوى إقتلاه ... ومن صحا منهم وسكراه
تصنيف من كاد أن يشاركهم ... لكن وقاه بفضله الله
فضم مما منوا طرفا ... يعجب قاريه حين يقراه

ونرى ابن السراج يضمن اطار العشاق بكثير من شعره ، وما نظنه فعل هذا الا لحبه للشعر ونظمه من جهة ، واتخاذ هذه الوسيلة للتعبير عن رأيه في قصص العشاق من جهة أخرى ، ولقد خالف بذلك الف المؤلفين في التعليق على الاخبار الادبية وقصص العاشقين نثرا ، فحول ما يريد ان يقوله شعرا ارضاء لرغبته في النظم ،خاصة انه ينظم بعض العلوم كالفقه والتصوف والمناسك ، وما فعله ابن السراج لون من التجديد في التأليف لم يعرف بصفة عامة قبل ذلك .

---

(١) مصارع العشاق ١/٣ .
(٢) مصارع العشاق ١/٧٥ .
(٣) مصارع العشاق ١/٢٣٧ .

ولقد اهتم ابن السراج في الجزء الاول من كتابه بتحديد حقيقة العشق وبيان اصله وطوف بنا في رياض الادب والشعر وأقوال الادباء والحكماء ، وقد استعان ابن السراج بالروايات الشعرية في محاولة الوصول الى مفهوم العشق ومآله والتبصير بعواقبته وماسيه المفجعة .

ولا نعجب لذلك فكتابه يدور حول مصارع العشاق من العذريين والصوفيين ، وما لابس حياتهم من نوادر وأخبار وأمثال ، ولا شك أن الحب العذرى ، والحب الالهى يمثلان جزءا هاما من الادب العربى بما يحمله من احساس طاهر ووجدان نقى وعاطفة حارة متقدة أودت بحياة بعض العشاق ، بعد أن تكبدوا في عشقهم كل ألوان العذاب والهوان والمجاهدة حتى دفعهم الحب الى ان يضحوا بما ملكت أيديهم ولو كانت ارواحهم وهى اغلى ما في الجود .

ويذكر ابن السراج بعض المأثورات التى تحدد مفهوم العشق، منها هذا الخبر الذى يرويه ابن السراج برواية موثقة بالسند ، فقد سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق : ما هو ؟ فقال سوانح (١) تسنح للمرء فيهتم بها قلبه وتؤثرها نفسه ، فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى ، انما عليك ان تجيب في مسألة طلاق أو في محرم صاد ظبيا أو قتل نملة ، فأما هذه فمسائلنا نحن ، فقال له المأمون : قل يا ثمامة : ما العشق ؟ فقال ثمامة : العشق جليس ممتع وأليف مؤنس ، وصاحب مالك وملك قاهر ، مسالكه لطيفه ومذاهبه غامضة وأحكامه جائزة ، ملك الابدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان (٢) طاعتها وقود

---

(١) سوانح : جمع سانحة أى أفكار وخواطر تعرض للمرء وتخطر بباله
(٢) العنان : اللجام الذى تمسك به الدابة .

تصرفها ، توارى عن الابصار مدخله ، وعمى في القلوب مسلكه ، فقال له المأمون : أحسنت والله يا ثمامة ، وامر له بألف دينار (١) ، وهذا يعطى صورة عن اهتمام الناس حتى في مجلس خليفة كالمأمون بمفهوم العشق وظواهره وأثره في النفوس والأفئدة ، فحين يستولى العشق على القلب يورد صاحبه موارد الالم والحيرة والذهول .

وينقل ابن السراج قول بعض الفلاسفة في العشق حيث يقول : لم أر حقا أشبه بباطل ولا باطلا أشبه بحق من العشق : هزله جد وجده هزل وأوله لعب وآخره عطب ، وقول أبى زهير المدينى حينما سئل عن العشق : هو الجنون والذل ، وهو داء أهل الظروف ، وقول يحيى بن معاذ (٢) : لو كان الى من الامر شيء ما عذبت العشاق ، لان ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار ، وقول بعض الشعراء :

وما الحب الا شعلة قدحت بها عيون الها باللحظ بين الجوانح (٣)
ونار الهوى تخفى وفي القلب فعلها كفعل الذى جادت به كف قادح (٤)

وبعد أن ذكر ابن السراج من الروايات ما يدور حول أصل العشق وتحديد معناه ، ذكر بعض الروايات التى تشير الى حكمه ، وتحدد نظرة الدين اليه ، ونراه يروى ـ كغيره من دارسي العشق وأحوال العشاق ـ الاثر الشهير عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله

---

(١) صارع العشاق ١/٤ وما بعدها .
(٢) يحى بن معاذ الرازى الواعظ الصوفى ، له كلام حسن فى الرجاء والمعرفة خرج الى بلخ وأقام بها ثم رجع الى نيسابور وتوفى بها سنة ٢٥٨هـ ( الرسالة القشيرية ص ٢١ ) .
(٣) قدح الزند : أخرج منه النار . الها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية تشبه بها المرأة تحت الترائب مما يلى الصدر .
(٤) صارع العشاق ٥/١ وما بعدها .

عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » ويرويه برواية أخرى عن ابن عباس أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عشق فظفر فعف فمات مات شهيدا » (١) • وهذا الحديث حديث مختلف في صحته ، فمن العلماء من يقول انه حديث صحيح ، ولهذا عد بعض الفقهاء ان ميت العشق من الشهداء آخذا بهذا الحديث ، ويقول في هذا المعنى الامام أبو الوليد الباجى :

اذا مات المحب جوى وعشقا ... فتلك شهادة يا صاح حقا
رواه لنا ثقات عن ثقات ... الى الحبر ابن عباس ترقى

ومن العلماء من قال انه ليس بحديث صحيح وانه من كلام ابن عباس ، ومعناه الدينى صحيح ، فهو دعوة الى العفاف وترغيب في مجابهة الهوى وعدم التردى في هوة الرذيلة والفاحشة (٢) •

وقد تناول ابن السراج في كتابه أحوال العشق والعشاق فأفراد **بابا لشوق المحبين ، وبابا لمصارع الشاق ، وبابا لخلوات العشاق ،** وبابا لخلوات العشاق ، وبابا لعقوبات فساق العشاق ، وبابا لذكر مصارع محبى الله عز وجل ، وبابا لمصارع عشاق الحور العين ، وبابا لمصارع عشاق الجنان ، وبابا للظافرين بأحبابهم مع العفاف بعد أن أشرفوا على الاتلاف ، وغير ذلك من الابواب المتنوعة لاحوال العشق والعشاق •

---

(١) مصارع العشاق ١/٧ وما بعدها •

(٢) انظر هامش (٤) من مصارع العشاق ١/٧ ، دراسة الحب فى الأدب العربى للدكتور/مصطفى عبد الواحد ص ٣٢٥ ط دار المعارف القاهرة •

ولم يلتزم ابن السراج بترتيب أخبار العشاق مجتمعة كما فعل أبو الفرج الاصفهانى في ترجمته للشعراء من العذريين وغيرهم ، بل نرى ابن السراج يأتى بأخبار جميل بن معمر مثلا متفرقة في أكثر من موضع في الكتاب وتبويبه ، فيذكر الشاعر العذرى في اكثر من موضع تمشيا مع تبويب الكتاب ومنهجيته التى رسمها المؤلف في هذا الكتاب ٠

والكتاب في الحقيقة ثروة ادبية تاريخية تضم الأخبار والنوادر وأخبار العشاق الكثيره المدعمة بأبيات الغزل لكثير من الشعراء المشهورين وغير المشهورين ، وهذا يدل على أن ابن السراج كان من اصحاب المواجد ومن المتحلين بالمحبة والعاطفة الرقيقة المتعمة بالحب والوفاء والاخلاص ٠

وكتاب ابن السراج يعطينا فكرة واضحة عن ثقافة مؤلفة التى كانت محصورة في علوم الدين واللغة وادلاب ، ولذلك لا يعسر علينا الرجوع الى مصدره الاصلى ، وهو التراث الادبى شعره ونثره كما كان سائدا في عصره ، ولقد نقل ابن السراج أغلب كتابه من مجالس الرواية ، وهذا سر حرصه على الاسناد . ودقته في تسجيل كيفياته ، سمما يدل على أن مجالس العلم ـ وأغلبها كان في حلقات المساجد ـ كانت تعنى بألوان الادب من شعر ورواية ، فكثير من أخبار ابن السراج الادبية رواها عن شيوخه في المسجد الحرام ، وهو أقدس مكان عند المسلمين ، وربما كان فيها غزل أو وصف للنساء وحديث عن الواطف ٠

---

(١) انظر دراسة الحب فى الأدب العربى ص ٤٠٥ وما بعدها ٠

ولم يعتمد ابن السراج على النقل من الكتب كثيرا ، فالنقل عن الكتب لم يكن طريقه مثلى في التأليف في هـذا العصر ، فقـد كانت المشافهة والقراءة على الشيوخ اهم بكثير من الاخـذ من الكتـب مباشرة ٠

ولم يذكر ابن السراج من الكتب التى اعتمـد عليهـا الا ثلاثة كتب منها « الاغانى » لابى الفرج الاصفهانى ، وديوان الصبابة وكتاب التمثلى ، ولم يذكر مؤلفى هذين الكتابين ٠ وقد أثر كتـاب ابن سراج ( مصارع العشاق ) في كتابين من كتب العشـق بين كل منهما نحو خمسة قرون ما يدل على أنه ظل ذائع الصيت في هذا المجال طيلة هذه القرون : أولهما كتاب « ذم الهوى » لابى الفرج عبدالرحمن بن محمد بن الجوزى المتوفي سنه ٥٩٧ هـ أى بعد وفـاة ابن السراج بنحو قرن ، وثانيهما كتاب « تزيين الاسواق بتفصـيل أشـواق العشاق » لداود الانطاكى من أدباء القرن الحادى عشر الهجرى (١)٠

**٤ ـــ القيمة الأدبية لكتا بمصارع العشاق :**

كتاب ( مصارع العشاق ) كما قلنا ثروة أدبية تضم الاخبـار الادبية الصرفة ذات الدلالة التاريخية والاجتماعية ، وتضم جانبـا مهما من الشعر الغزلى العذرى والشعر الصوفي ، علاوة على أخبـار العشاق العذريين والصفيين وأقوالهم وأحوالهـم وقصـصهم التى تشد الاسماع وتستولى على المشاعر والاحاسيس ، ولقـد اهتـم ابن السراج في كتابه بالشراء العذريين وغـيرهم من المشـهورين بالعشق في العصرين : الاموى والعباسي خاصـة ، ولم يذكر ابن

---

(١) لبيان ذلك انظر ذم الهوى لابن الجوزى نشر دار الكتب الحديثة ١٩٦٢ ، تزيين الأسواق الأزهرية ١٣٠٨ هـ ٠

السراج من أخبار المشتهرين بالعشق في الجاهلية الا خبرين : أحدهما عن عبد الله بن عجلان النهدى والاخر عن المرقش الاكبر ، ويبدو أن ابن السراج كان معجبا بالحب العذرى فاهتم به وجعله جل همه ، والجاهلية لم تعرف العشق بمفهومه العذرى الذى اتضح في العصر الاموى • ويجب ان ننبه الى ان الحياة الاموية لم تكن هى التى خلقت هذا الحب من عدم او أوجدته لاول مرة في تاريخ العرب ، ولكنها البادية العربية منذ أقدم عصورها هى التى أوجدته ، ثم كانت الحياة الاموية هى التى بعثته وجددته ، ونفخت فيه من روحها ، فعاد خلقا جديدا كما خلقته البادية اول مرة ثم مضت تطبعه بطوابعها الاسلامية الجديدة ، فاكتملت له سماته المميزة واستقرت تقاليده ومقوماته ، فالحب العذرى ليس حبا أمويا ولا حبا انفردت به ( عذرة ) وحدها ، ولكنل حب البادية العربية في جميع عصورها ، فهو نبت صحراوى أصيل ، عرفته البادية العربية وظلت ترعاه ، وتمد له الاسباب حتى نما وازدهر في ظل بنى أميه (١) •

ومن هنا لا نعجب أن يذكر ابن السراج قصة عبد الله بن عجلان النهدى وصاحبته هند وقصة المرقش وصاحبته أسماء لانهما يشبهان قصتين من قصص الحب العذرى في كثير من الامور والملابسات ، فقصة عبد الله بن عجلان النهدى وصاحبته هند تشبه قصة قيس بن ذريح وصاحبته لبنى ، وقصة المرقش وصاحبته أسماء تشبه قصة عروة بن حزام وصاحبته عفراء (٢) •

---

(١) انظر : الحب المثالى عند العرب للدكتور يوسف خليف ص ٥ وما بعدها ط دار المعارف القاهرة •

(٢) انظر : قصص الحب العربية للأستاذ عبد الحميد ابراهيم ص ٦٢ ط دار المعارف القاهرة •

كما اهتم ابن السراج بذكر قصص عشاق الذات الالهية من أمثال الشبلى ورابعة العدوية ومجاهد وذى النون المصرى ويحيى بن معاذ وابراهيم بن أدهم والخواص وغيرهم ، وفوق ذلك فقد ضمن كتابه كثيرا من أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم نوادرهم في توثيق بالرواية والاسناد : مما يدل على مقدرة ابن السراج في العرض والتوضيح ، ولهذا فكتاب مصارع العشاق كتاب ادبى ممتع يشد القارىء ويمنحه قدرا من الادب الرفيع والتراث الادبى الخالد ٠

ويمكن ان نذكر أن أهمية الكتاب الادبية تتمثل في الجوانب الآتية :

**أولا : اعتماد الكاتب على الرواية والاسناد :**

لا شك ان كتاب ( مصارع العشاق ) مصدر من مصادر التراث الادبى الموثق بالرواية والاسناد ، فقد استقى المؤلف مادة الكتاب من مجالس الرواية ، مما يدل على أن مجالس العلم في المساجد وغيرها كانت تعنى بألوان الادب من شعر ورواية ، وقد كانت المشافهة والقراءة على الشيوخ طريقة من طرق التأليف أهم بكثير من النقل من الكتب والاخذ عنها ٠

ولقد حرص ابن السراج على الرواية والاسناد في كل أخباره ومروياته ، بل تعمد التزام الاسناد في كل خبر ، فهو يقول في أبياته التى كتبها في صدر الجزء الثانى والعشرين من كتابه :

ذكرت فيه باسناد مصارعهم  عجما وجدتهم في الناس أو عربا

وهذا الحرص على الاسناد في الأخبار الادبية وما يجرى مجراها ، مما ليس في الحديث النبوى الشريف او مسائل الدين والفقه يسترعى

النظر ويستأهل التأمل في دوافعه وفي جدواه ، فما الذى دعا ابن السراج الى التزام الاسناد مع أنه كتاب لا ينتسب الى أصول الدين أو أحكامه التى يطلب فيها الاسناد لتوثيق الخبر او بيان مورده ؟

لقد نشأ الاسناد أول ما نشأ في علم الحديث حين بدأ تدوينه على رأس المائة الاولى ، ومن هذا الوقت اقبل العلماء على كتابة السنن وتدوينها ، ومن هنا صار تحرى الاسناد في الرواية امارة على التثبيت ورعاية لتقاليد التلقى سواء كان ذلك في مجال علوم الدين او اللغة او الادب ٠٠٠٠ واذا اضفنا الى ذلك ان التعليم في تلك العصور كان يقوم على الرواية الشفهية والاخذ عن العلماء والائمة ، ولم يكن قائما على دراسة كتب بذاتها بقدر ما كان مرتبطا بالعلماء والاخذ عن الرجال ، استطعنا ان نتبين الدافع الذى حمل ابن السراج على اثبات الاسانيد في كتابه تحريا للصحة وجنوحا الى الثقة ومراعاة لسنة التعليم في هذا العصر (١) ٠

فمن هذه الاسانيد التى تؤكد دقة تسجيل تلقى ابن السراج عن شيوخه قوله مثلا في احد الاخبار «حدثنا شيخنا أبو على بن شاذان قال : حدثنى أبى أحمد بن ابراهيم بن شاذان قال : حدثنا أبو عبدالله أحمد بن سليمان بن داود بن محمد الطوسى قال : حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا هارون بن موسى قال : حدثنى عبد الله بن عمرو الفهرى عن عمه الحارث بن محمد عن عيسى بن عبد الاعلى ، قال: كانت بالمدينة جارية لآل أبى رمانة أو لآل أبى تفاحة يقال لها سلامة قال : فكتب فيها يزيد بن عبد الملك لتشترى له فاشتريت بعشرين ألف دينار ٠٠٠٠٠٠ الخ الخبر » (٢) ٠

---

(١) انظر دراسة الحب فى الأدب ص ٣٥٠ وما بعدها ٠
(٢) مصارع العشاق ١٤٨/١ ٠

وأحيانا يحدد ابن السراج مكان التلقى والسنة التى تلقى فيها كقوله « أخبرنا أبو أسحاق ابراهيم بن سعيد الحبال بقراءتى عليه بمصر في سنة خمس وخمسين واربعمائة ٠٠٠٠ ويمضي في الاسناد والرواية» (١) او مثل قوله « أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد الاردستاني بقراءتى عليه في المسجد الحرام بباب الندوة قال ٠٠٠٠٠ » (٢) ٠

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أمانة ابن السراج في تلقيه العلم وروايته كما سمعه كاملا باسناده ، وهذا يعطى للكتاب قيمة عظمى في نفوس القارئين والدارسين ، ويبعده عن الخرافات والتحريف والحشو المخل الذى لا جدوى منه ولا فائدة من ذكره ٠

**ثانيا : اشتمال الكتاب على كثير من أخبار العرب وأمثالهم :**

يضم كتاب ( مصارع العشاق ) كثيرا من أخبار العرب ذات الدلالة التاريخية والاجتماعية ، وابن السراج حينما يروى طرفا من أخباره ، ولكنه يهتم بالخبر ويشير الى المغزى من سرده ، كما أنه يطوف بكافة العصور فيذكر أخبار العرب في الجاهلية وصدر الاسلام وعصر بنى أميه والعباسيين ٠

فمن الاخبار ذات الصبغة التاريخية التى تشير الى موقف الخلفاء من الشراء ، وتقديرهم للشعراء ما يذكره ابن السراج من جملة أخباره عن الخليفة المأمون العباسي ، ونصه : ان المأمون لما خرج الى خراسان كان في بعض الليل جالسا في ليلة مقمرة اذ سمع مغنيا يغنى من خيمة له :

---

(١) انظر مصارع العشاق ٥٢٦/١ ٠
(٢) مصارع العشاق ٢٥٨/١ ٠

قالوا خراسان أقصى ما نحاوله ... ودون ذاك فقد جزنا خراسانا
ما أقدر الله أن يدنى بعرته ... سكان دجلة من سكان جيحانا
عينا أظن أصابتنا فلا نظرت ... وعذبت بصنوف الهجر ألوانا
متى يكون الذى أرجو وآمله ؟ ... أما الذى كنت أخشاه فقد كانا

فخرج المأمون من موضعه حتى وقف على الخيمة وعلمها ، فلما كان من الغد وجه فأحضر صاحب الخيمة وهو شاب ، فسأله عن اسمه ، فقال : العباس بن الاحنف (١) قال : أنت الذى كنت تقول:

قال : نعم قال ما شأنك ؟ قال يا أمير المؤمنين تزوجت ابنة عم لى ، فنادى مناديك يوم أسبوعى في الرحيل الى خراسان ، فخرجت فأعطاه رزق سنة ورده الى بغداد وقال : أقم الى أن تنفقها فاذا نفدت رجعت (٢) .

هذا الخبر يسجل بعض تاريخ المأمون ورحلته الى خراسان ، ويسجل موقفه من العباس بن الاحنف الشاعر العباسي المشهور ، ومدى ما كان يلقاه الشعراء من العناية والتكريم خاصة اذا أجاد الشاعر وأبدع في التصوير والتعبير . ومن الاخبار التى نقلها ابن السراج ورواها عن شيوخه بسند متصل هذا الخبر ذو الدلالة الاجتماعية الذى يشير الى عدم التكافؤ بين الرجل والمرأة ، ومايؤدى هذا الامر الى عواقب وخيمة ، ونصه : أن رجلا من بكر بن وائل خطب الى رجل

---

(١) العباس بن الأحنف بن الأسود من بنى عبدى بن حنيفة : شاعر مشهور غزل ظريف رقيق الحاشية مطبوع ، من شعراء الدولة العباسية ، ولديباجته رونق ولمعانيه عذوبة ولطف وكان حسن التصرف فى الشعر توفى عام ١٩٢ هـ .

(٢) صارع العشاق ١/٢٠٠ وما بعدها .

من مراد (١) ابنته فهم ان يزوجه ، فبينما الجارية تلعب مع الجوارى اذ جاء الخاطب فقلن لها : هذا خاطبك ؟ فقالت : ما رجل هو أحب الى ان أكون قد رأيته منه ، فلما رأته رأت رجلا كبير السن قبيح الوجه فقالت : أوقد رضي أبى به ؟ قلن : نعم ، فدخلت البيت فاشتملت على السيف وشدت عليه فسبقها عدوا ونالته بضربة ، فقال عبد الله ابن همام السلولى (٢) وهو يشبب بامرأه :

أخاف بأن تجزى المحب كما جزت فتاة مراد شيخ بكر بن وائل
فلو لم يرغ روغ الحبارى تفتحت نوائبه منها بأبيض قاصل (٣)
ولا ذنب للحسناء لما بدا لها ضعيف كخيط الصوف رخو المفاصل (٤)

ونحن نرى أن ابن السراج بعد ان عرض لخبر هذه الفتاة التى كرهت ان تتزوج رجلا مسنا قبيح الوجه ، بل حاولت قتله ، نراه يذكر أبيات تؤكد هذه القصة وتسجيل ما حدث لشيخ بكر بن وائل وفي ذلك مزيد تأكيد للخبر الذى ساقه ابن السراج ، ودعمه بأقوال الشعراء والادباء .

وقد ذكر ابن السراج في كتابه كثيرا من أمثال العرب المشهور قيلت على أثرها هذه الامثال ، فالمثل مأثور سائر يشبه به حال الثانى

---

(١) مراد : قبيلة من كهلان بن سبأ .

(٢) هو عبد الله هام السلولى : شاعر اسلامى أدرك زمن معاوية بن أبى سفيان ، وبقى الى أيام سليمان بن عبد الملك أو بعده ، وتوفى حوالى سنة ١٠٠ هـ .

(٣) راغ الرجل أو الثعلب يروغ روغا وروغانا : مال وحاد عن الشيء وانحرف فى استخفاء . الحبارى : طائر طويل العنق رمادى اللون يضرب الى الزرقة .

(٤) مصارع العشاق ١/١٦٦ وما بعدها .

بالاول سواء اما صدر عن حدث فعلى أو قصة فرضية على لسان الحيوان او غيره مثلا ٠

والامثال تكسب الكلام طلاوة وقوة وروعة ، وتقوم مقام البرهان، وهى مرآه تتجلى فيها أخلاق الامة وعاداتها وعقولها ودينها ولغتها ، ويجامع بين الايجاز واتقان التشبيه واصابة المعنى ، ولذا قيل : أسير من مثل ، ومن ثم يقول قائلهم :

ما أنت الا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

ومن الامثال التى ذكرها ابن السراج « أتوم من عبود » وهو مثل يضرب لمن نام نوما طويلا (١) ، وقولهم « ما أذنبت الا ذنب صحر » وهو مثل يضرب لمن عوقب على شيء ولا ذنب له أو لمن يجزى بالاحسان سوءا وصحر هذه ابنة لقمان بن عاديا الذى ابتلى بالنساء ، فكلما تزوج امرأه خانته ، وقد قتل ابنته صحر لانها من النساء حيث ضرب رأسها بصخرة فقتلها (٢) ٠

ومن الأمثال التى ذكرها ابن السراج « مرعى ولا كالسعدان » (٣) وهو مثل يضرب للشيء فيه فضل وغيره أفضل منه ، أو للشيء الذى يفضل على أقرانه وأشكاله ، وتقدير نظمه : هذا مرعى جيد وليس في الجودة مثل السعدانى (٤) ٠

---

(١) انظر المثل فى مصارع العشاق ٣٧٢/١ وما بعدها ، مجمع الأمثال للميدانى ١٩٦/٢ ، الفاخر ص ١٣٥ ٠

(٢) انظر مصارع العشاق ٨٥/١ وما بعدها ٠

(٣) السعيدان : نبت عريض الورق حلو عذب الطعم وله شوك دقيق وفيه لزوجة يسيرة ، والابل تسمن على السعدان وتطيب عليه ألبانها ٠

(٤) انظر المثل فى مصارع العشاق ٤٥٨/١ وما بعدها ، مجمع الأمثال ١٦/٢ ، الفاخر للمفضل بن سلمه ص ٦٤ ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤ ٠

ومن الامثال العربية التى ذكرها ووضح موردها قولهم «قد حيل بين العير والنزوان » (١) يضرب للرجل يحال بينه وبين ما يريد ، وقائله صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد من بنى سليم أخو الخنساء ، بعد أن طعنه ربيعة بن ثور الاسدى في يوم ذى الاثل بطعنة في جنبه ، وكان ذلك سبب موته بعد أن مرض قريبا من حول حتى مله أهله .

ولا بأس ان نذكر قصة المثل كما ذكرها ابن السراج موثقة بالسند والرواية حيث يقول : أخبرنا أبو على محمد بن الحسين الجازرى بقراءتى عليه قال حدثنا المعافي بن زكريا قال : حدثنا أبو حاتم قال حدثنا الأصمعى قال :

التقى صخر بن عمرو بن الشريد السلمى ورجل من بنى أسد ، فطعن الرجل صخرا ، فقيل لصخر : كيف طعنك ؟ قال كان رمحه أطول من رمحى بأبنوب فضمن صخر منها ( أى أصيب بعاهة وداء في الجسد ) ، وطال مرضه ، وكانت أمه اذا سئلت عنه قالت: نحن بخير ما رأينا سواده بيتنا ، وكانت امراته اذا سئلت عنه قالت : لا هو حى فيرجى ، ولا هو ميت فينعى فقال صخر :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى ... وملت سليمى مضجعى ومكانى
اذا ما امرؤ سوى بأم حليلة ... فلا عاشق الا في شقا وهوان
لعمرى قد أيقظت من كان نائما ... وأسمعت من كانت له أذنان
بصيرا بوجه الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان (٢)

---

(١) العير : الحمار وغلب على لوحش ، النزوان : الوثوب .
(٢) مصارع العشاق ١/٢٠٩ وما بعدها .

ولأخته الخنساء فيه مراث كثيرة مؤثرة ، لانه كان أبر أخوتها بها ، وما جزعت على موت أحد قدر جزعها عليه ، وعلى قدر المصيبة يكون الجزع والالم والكآبه والاحزان ٠

**ثالثا : اجتواء الكتاب عدي باقة من الشعر العربي الرصين :**

يضم كتاب ( مصارع العشاق ) على مجموعة رائعة من الشعر موثقة بالرواية والاسناد تنتسب في مجموعها الى العصرين الأموى والعباسي ، وليس في الكتاب من الشعر الجاهلى الا بضعة أبيات ذكرت في سياق الاخبار القديمة كقصة عبد الله بن عجلان النهدى وقصة المرقش ، وبعض المناسبات الاخرى ٠

وابن السراج يذكر شعرا لشعراء مشهورين وغير مشهورين ممن لم يعرفوا بالعشق والهوى العذرى ، ولكنهم عبروا عن عاطفتهم المصطنعة في مجال الغزل ، أو يذكر لهم شعرا في غير مجال الغزل ، ومنهم جرير وأبو نواس وابن الرومى وأبو تمام وابن الحجاج وبشار بن برد والحسن بن وهب والوليد بن يزيد وعلى بن الجهم والبحترى وأبو العتاهية وعمر بن أبى ربيعة والحسين بن مطير وابن دريد وغيرهم والمقام يضيق عن ذكر نماذج لهؤلاء الشعراء أو لكثير منهم ، ولكننا نكتفى بذكر بعض هذه النماذج للدلالة على حسن اختيار ابن السراج للشعر الذى يرويه في كتبه ، فمن شعر أبى تمام الذى يرويه ابن السراج (١) ٠

أنت في حل فزدنى سقما ... أفن صبرى واجعلى الدمع دما
وأرض لى الدهر بهجرك فان ... ألمت نفسي فزدنى ألما

---

(١) مصارع العشاق ١٩٩/١ ٠

محنة العاشق زل في الهـوى وان استودع سرا كتمـا
ليس منـا من شـكا علته من شكا ظلم حبيب ظلما

ومن شعر بشار بن برد يروى قوله :

وكـأن حلـو حـديثها قطع الرياض كسين زهـرا
وكـان تحت لسـانها هـاروت ينفث فيه سـحرا
وتخـال ما جمعت عليه ( م ) ثيابهـا ذهبـا وعطـرا
وكأنهـا بـرد الشـرا ب صفاء ووافق منك عطـرا (١)

ومن شعر على بن الجهم (٢) يروى قوله :

نوب الزمان كثيرة وأشـدها شمل تحكم فيه يوم فـراق
يا قلب لم عرضت نفسك للهوى أوما رأيت مصارع العشاق ؟ (٣)

ومن شعر الوليد بن يزيد (٤) يروى قوله :

وقـد قـال طبيبى وطبيبى غير آل (٥)
أشك ما شئت سوى الحب (م) فـانى لا أبـالى
سـقم الحب رخيص ودواء الحب غـال ( ٦ )

---

(١) مصارع العشاق ١/٣٦٦ .

(٢) هو أبو الحسن على بن الجهم بن بدر بن الجهم القرشى السامى ( نسبة الى سامة بن لؤى بن غالب ) الشاعر المشهور كان جيد الشعر عالما بفنونه مطبوعا عذب الألفاظ وتوفى سنة ٢٤٩ هـ .

(٣) مصارع العشاق ١/١٤٠ .

(٤) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ولى الخلافة بعد موت عمه هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وكان من أجمل الناس وأقواهم وأجودهم الا أنه كان خليعا ماجنا متهتكا وان كان أديبا ظريفا وشاعرا ، وقتل سنة ١٢٦ هـ .

(٥) آلى : مقصر .

(٦) مصارع العشاق ١/٢٣١ .

ومن شعر أبى العباس حمد بن يحيى ( ثعلب ) النحوى (١) يروى قوله :

قد قلت والعبرات (م) تسفحها على الخد الماقى
حين انحدرت الى الجز (م) يرة وانقطعت عن العراق
وتخبطت ايدى الحرفا ق مهامه البيد الرقاق
يا بؤس من سل الزما ن عليه سيفا للفراق (٢)

ولم يقتصر ابن السراج على شعر الغزل ، بل روى شعرا في أغراض أخرى غير الغزل ، ومن ذلك ما رواه من شعر أبى طالب بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم في رثاء صديقه مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان من شعراء قريش وأجوادها : (٣)

ليت شعرى مسافر بن أبى عمـ رو (م) وليت يقولها المحزون
كيف كانت مدارة الموت في فيك (م) وماذا بعد الممات يكون
خير ميت على هبالة قد حا لت فياض من دونه وحزون
بورك الميت الغريب كما بور ك نضر الريحان والزيتون
كم صديق وصاحب وابن عم وخليل عفت عليه المنون
فتعزيت بالجلادة والصبر ( م ) وانى بصاحبى لضنين

---

(١) هو أحمد بن يحى النحوى وعرف بثعلب أحمد بن يحى الشيبانى بن يسار وتوفى سنة ٢٩١ هـ .
(٢) مصارع العشاق ١/٣٢٦ وما بعدها .
(٣) مصارع العشاق ١/٣٤٧ وما بعده .

رجع الناس آيبين جميعا وخليلى في مرسي مدفون ( ١ )

ويذكر أبو الفرج الاصفهانى طرفا من قصة مسافر بن أبى عمرو ، وأنه كان يهوى هند بنت عتبة ، وأنه عزم على الزواج منها فخرج الى النعمان بن المنذر يستعينه في مهر هند بنت عتبة ، فقدم أبو سفيان بن حرب فسأله مسافر عن أخبار مكة وهل حدث بعده شيء ؟ فقال أبو سفيان : لا إلا أنى تزوجت هند بنت عتبة فجزع مسافر جزعا شديدا حتى قضي نحبه أسفا وغما (٢) . وحين أشار ابن السراج الى قصة مسافر بن أبى عمرو رأى من الخير ان يذكر لنا هذا الرثاء الذى قاله أبو طالب في صديقه مسافر ، وهو رثاء صادق فيه أنبل المشاعر الانسانية الرقيقة والوفاء والصبر الجميل .

وكثيرا ما يكشف ابن السراج عن شعراء مجهولين أو غير مشهورين فيروى لهم شعرا جيدا ، لا يقل في جماله عن شعر غيرهم ممن أخذوا شهرة ومكانة مرموقة بين الناس ، ومن ذلك ما يرويه ابن السراج لاحمد بن محمد القمى المؤدب : (٣)

يراك الفؤاد بعين الهوى وعين المحبة لا تخاف
اذا غبت عن ناظر المقلتين (م) فقلبى يراك وما يطرف
تمكن في القلب من حبكم عيون من الحب ما تنزف

---

(١) هبالة وفى رواية ( تباله ) وهو موضع من أرض تهامه مات فيه مسافر حين عودته قاصدا مكة ودفن فيه . الفيافى جمع فيفاء أو فيفاة وهى المفازة ( الصحراء ) لا ماء فيها مع الاستواء والسعة . حزون : جمع حزن ( ضد السهل ) وهو ما غلظ من الأرض فى ارتفاع . المرمس والرمس : القبر .

(٢) الأغانى ١٠٢/١٩ .

(٣) مصارع العشاق ٣٢/١ .

فمن بك الى حبه ساليا فاني من حبكم مدنف
كلام رخيم ودل مليح ووجهك من كل ذا أظرف (١)

ومن الشعر الحسن الذى يرويه ابن السراج للحسام بن قدامة المكى مع اثبات الاسناد والرواية قوله : (٢)

لا تلومـا فـلات حين مـلامه أفاق الحب نفسه المستهامه
قتلتنى بشكلهن الجـوارى والجوارى في شكلهن عـرامه
فاذا ت فجمعـوا الحـرميا ت وصفوا مولدات اليمامه
وذوات الحقـائب المـدنيا ت ذوات المضـاحك البسامة
ثم قوموا على الحجون فقولوا يا قتيل القيان ابن قدامه (٣)

وهو من الشعر الظريف الذى يدل على خفة روح الشاعر وظرفه، وما يتصف به من السلاسة والعذوبة وجمال التعبير وصفاء الوجدان.

**رابعا : اهتمام الكتاب بذكر أخبار العشاق الاذريين وغيرهم :**

اشتمل كتاب ( مصارع العشاق ) على كثير من قصص العشاق العذريين وغيرهم ممن اشتهر بالعشق والهوى ، وهو بلاشك

---

(١) طرف بعينه : حرك جفنيها . نزفت البئر : نزحت والفعل لازم ومتعد . مدنف : من أدنفه الحب : أسقمه سقما ملازما . الرخيم : الصوت الحسن الرقيق . الدل والدلال : حسن الحديث وحسن المزاح والهيئة والشمائل .

(٢) مصارع العشاق ١/١٢٤ وما بعدها .

(٣) المفردات : الشكل بالكسر والفتح : دل المرأة ودلالها وغزلها . الحرميات : المنسوبات الى احد الحرمين مكة والمدينة . الحقيبة فى الأصل وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه ولعل نساء المدينة كن يحملن الحقائب فى أيديهن كما تفعل النساء اليوم . الحجون : جبل بأعلى مكة .

سفر جامع لاخبار العشاق ممن ذكروا في كتب التراث الادبى ، وما تحتويه أخبارهم من تراثهم الادبى شرا أو نثرا ، فنجد في الكتاب كثيرا من أخبار جميل بن معمر وكثير وقيس من الملوح وعروة بن حزام وقيس بن ذريح ونصيب والعباسي بن الاحنف وتوبة صاحب ليلى الاخيلية وعمر بن أبى ربيعة وغيرهم .

وان تاريخ الادب ليسجل في صفحاته سطورا من نور يرددها الناس جيلا بعد جيل لكثير من الشعراء السابقين من أهل الصبابة والعشق لما خالط نفوسهم من الطهر والصفاء وغلب عليهم من العفة والوفاء كالشعراء العذريين في العصر الاموى ، فقد كانوا مثلا عليا في سمو العاطفة وجمال الخلق والشمائل .

وأن أحاديث الشق ممتعة محببة الى النفوس ، وتاريخ الادب العربى حافل بها مزدان بالكثير منها ، وكتب الادب عامرة بقصص العشاق وأخبارهم ، وأن كانت احاديث وأخبار منتشرة هنا وهناك ، ولقد كان لابن السراج البغدادى فضل كبير في رواية كثير من هذه القصص بين دفتى كتابه موثقة بالاسناد والرواية ، ومن ثم فكتاب معين ثر لعشاق الادب ومحبى هذا اللون من تاريخ العرب وآدابهم ومآثرهم .

ونكتفى بذكر بعض النماذج الدالة على سمو عاطفة العشاق العذريين وطهرهم وعفافهم ، فمن أخبار جميل بن معمر صاحب بثينة ( توفي سنة ٨٢ هـ ) ما يرويه ابن السراج . يقول سهل بن سعد الساعدى : لقينى رجل من أصحابى ، فقال هل لك في جميل تعوده فانه ثقيل المرض ؟ قلت نعم فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه ، وما يخيل الى الا أن الموت علق به ، فنظر الى فقال : يا بن سعد ما تقول في رجل لم يزن قط ولم يشرب خمرا قط ، ولم يسفك دما حراما قط

يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله مذ خمسين سنة ؟ قال قلت : من هذا الرجل ؟ فانى أظنه والله قد نجا لان الله تعالى يقول ( ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ) (١) قال : أنا . قال فقلت : والله ما رأيت كاليوم أعجب من هذا ، وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة ،قال أنا في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من الآخرة ، فلا نالتنى شفاعة محمد ان كنت وضعت يدى عليها لريبة قط ، وان كان اكثر ما كان منى اليها أنى كنت آخذ يدها أضعها على قلبى فأستريح اليها ، قال ثم أغمى عليه ثم أفاق فقال :

صرخ النعى وما كنى بجميل ... وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد أجر الذيل في وادي القرى ... نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل ... وابكى خليلك دون كل خليل

ثم أغمى عليه فمات (٢) .

ويروى ابن السراج خبرا عن عروة بن حزام (٣) حدث به معاذ بن يحيى الصنعانى حيث يقول : خرجت من مكة الى صنعاء ، فلما كان بيننا وبين صنعاء خمس ساعات رأيت الناس ينزلون عن محاملهم ويركبون دوابهم ، فقلت أين تريدون ؟ قالوا : نريد ان ننظر الى قبر عفراء وعروة ، فنزلت عن محملى وركبت حمارى واتصلت بهم ، فانتهيت الى قبرين متلاصقين قد خرج من كلا

---

(١) سورة النساء الآية ٣١ .
(٢) مصارع العشاق ٤٥٢/١ وما بعدها .
(٣) عروة بن حزام بن مالك بن حزام العذرى صاحب عفراء العذرية ابنة عمه ، توفى فى خلافة عثمان سنة ٣٦ هـ .

القبرين ساق شجرة ، حتى اذا صارا على قامة التقا ، فكان الناس يقولون تآلفا في الحياة وفي الممات (١) .

ويذكر ابن السراج قصة قيس بن ذريح مع صاحبته لبنى ، ويذكر فيما يذكر له أبيات منها (٢) :

لقد عنيتنى يا حب لبنى ... فتع اما بموت أو حياة
فان الموت أيسر من حياة ... منغصة لها طعم الشتات
وقال الآمرون : تعز عنها ... فقلت : نعم اذا حانت وفاتى

وشعر العذريين كلهم بلا استثناء وأخبارهم تضوع بهذا العطر النقى الصافي ، عطر الطهر والعفة والفضيلة ، فلم يقربا ريبة ، ولم يستخفهما الهوى الى اثم أو منكر .. انه الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يتسامى به أصحابه فوق رغبات الجسد ، وما يضطرم فيه من غرائر وشهوات .

**خامسا : احتواء الكتاب على أخبار الصوفية وأشعارهم :**

لا نعجب ان يضم كتاب ( مصارع العشاق ) أخبار العذريين والمتصوفين معا ، فالتصوف نتيجة مجاهدة ومكابدة وحنين ولهفة يدفعه محاولة السمو في العبادة الى تحصيل الاقرب من الله واستحقاق حبه ورضاه ، وعنصرا البذل والتضحية عن الصوفيين في موقف في موقف الحب لله يصنان مرتكزا بمثل ارتباط بين اللونين : الصوفي

---

(١) مصارع العشاق ١/٢٩٣ .
(٢) مصارع العشاق ١/٢٠٥ وقيس لبني مضري من كنانة وصاحبته لبنى بنت الحباب وتوفي سنة ٦٨ هـ .

والعذرى لدوران كل منهما في مغزاه حول هذين العنصرين ، فمداومة العشق من الصوفي على الرغم مما ينـاله بسـببه من آلام يمثـل التصميم على الحب والتضـحية من أجلـه ٠ ويجمـع الصـوفيين والعذريين الاتجاه الرومانسي الذى يحمل فيه المحب عناء اليـأس ، وقوة الحرمان ، فينطق بأشعار انسانية خالدة فيها التضحية بالروح في سبيل من يحب ٠٠٠ والاسلام قد بارك الاتجاه الرومانسي في الحب لما فيه من نقاء وطهر وبذل وتضحية ، وعندما ما زجت الروح الاسلامية الحب العذرى ونقلته الى دوائر التصوف ، نجده قد أفاد رفعـات رفعته الى أعلى مراتب الطهر والعفة ، وانضجته العبقرية العربية في ظلال الاسلام حبا عظيما لا تقوى على حمله غير نفوس عظيمـة تربت على ان تحتمل من العذاب أعنفه ، ولا تقف عند حد التضحيات التى عرفت عن المتيمين والعذريين ٠

وانما أصبح الحب العظيم ( حبا الهيا ) يتـم فيـه الفنـاء في المحبوب ، وأصبح للصوفيين عذرهم في حبهم الالهى هذا من بعد أن صح على طريقه المتيمين والعذريين من هيام مخلوق بمخلوق الى حد التضحية بالنفس والروح (١) ٠

وعلى الرغم من وجود فروق بين الحبين الصوفي والعذرى الا أن هناك وجه ارتباط بينهما كما وضحنا ، ومن هنا فلا نعجب ان جمع بينهما ابن السراج في كتابه ، وأطلق على الفريقين لفظ ( عشـاق ) فكل واحد من الفريقين برح به الشوق وأضناه الحنين واللهفة وسما بنفسه وهى الامارة بالسوء عن رغبات الجسد ، ولاهم له الا البذل

---

(١) انظر فى الأدب الصوفى للأستاذ الدكتور نظمى عبد البديع محمد ص ٦٨ وما بعدها ( الطبعة الأولى ) ٠

والتضحية لارضاء محبوبه والفناء فيه ، فخلصت نفوسهم من الشوائب ورقت قلوبهم وارتقت في سماء الصفاء والنقاء .

ويضم كتاب ( مصارع العشاق ) كثيرا من أخبار الصوفية وأشعارهم ، وقد جعلهم ابن السراج طوائف منهم من هام في الذات الالهية ، ومنهم من هام في حب الجنة ، ومنهم من عشق الحور العين، ونحس بعاطفة الرجل وهو ينقل لنا هذه الاخبار فهو من أهل المواجد والمحبة ، وكأن هذه الاخبار تمس شغاف قلبه وحنايا فؤاده ، وتشده شدا بما فيها من صفاء وفناء في حب الله تعالى .

ومن أخبار الصوفية التى نقلها ابن السراج ما حدث به عبد الرحمن الصوفي (١) حيث قال : كنت ببغداد في سوق النخاسين ، فرأيت قوما مجتمعين فدنوت منهم فرأيت شابا مصروعا مغشيا عليه فقلت لواحد منهم : ما الذى أصابه ؟ فقال سمع آية من كتاب الله تعالى ، فقلت أى آية كانت ؟ فقال : قوله عز وجل « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » (٢) قال فلما سمع الكلام افاق وأنشأ يقول :

ألم يأن للهجران أن يتصرما ... وللغصن غصن البان أن يتبسما
وللعاشق الصب الذى ذاب واتحنى ... ألما آن أن يبكى عليه ويرحما
كتبت بماء الشوق بين جوانحى ... كتابا حكى نقش الوشاة منمنما (٣)

---

(١) هو عبد الرحمن بن الصقر أحد شيوخ الصوفية روى عن أبى تراب النخشبى الصوفى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ .
(٢) سورة الحديد الآية ١٧ .
(٣) مصارع العشاق ١/١٣٤ وما بعدها ، غنم الثوب : نقشه .

ومن أخبار أبى بكر الشبلى (١) يروى ابن السراج ما حدث به على بن المثنى حيث يقول : دخلت على أبى بكر جمور بن جعفر الملقب بالشبلى في داره يوما وهو يهيج ويقول :

على بعدك لا يصبر (م) من عادته القرب
ولا يقوى على حجبك ( م ) من تيمه الحب
لئن لم ترك العين فقد يبصرك القلب (٢)

ولقد كان الشبلى في تصوفه دائما سنيا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال انه سئل من أسعد أصحابك بصحبتك ؟ فقال : أعظمهم لحرمات الله والهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله واسرعهم مبادرة في مرضاة الله وأعرفهم بقضائه واكثرهم تعظيما لما عظم من حرمة عباده ، وكان يؤمن بالفناء في الذات الالهية مثل استاذه الجنيد ولكنه لم يكن يفتى فيه عن نفسه الواعية ، فتصوفه تصوف صحو لا تصوف غيب ، وان بدا في كلامه أحيانا ان فناءه انما يكون في حال غيبة من مثل قوله وقد سئل متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب ان بدا الشاهد وفنيت المشاهد وذهبت الحواس واضمحل الاحساس (٣) .

ومن اخبار ابراهيم بن أدهم (٤) يذكر ابن السراج ما حدث به

---

(١) هو أبو بكر الشبلى وقد اختلف فى اسمه ، كان من أكابر الزهاد العارفين وتوفى ببغداد سنة ٣٣٤ هـ عن سبع وثمانين وهو نسوب الى شبله وهى قرية وراء سمرقند من بلاد وراء النهر .

(٢) مصارع العشاق ٢٣٩/١ .

(٣) العصر العباسى الثانى للدكتور شوقى ضيف ص ٤٨٤ وما بعدها ط دار المعارف .

(٤) هو أبو اسحاق ابراهيم بن منصور البلخى الزاهد المشهور كان أحد سادات الصوفية ، ودخل الشام فكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده وبها توفى سنة ١٦٢ هـ .

ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن الحسن البلخى عن ابراهيم بن أدهم قال :

وجدت يوما راحة ، وطاب قلبى لحسن صنع الله بى واختياره لى فقلت : اللهم ان كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما أسكنت بهم قلوبهم قبل لقائك ، فاعطنى ذلك ، فلقد أضر بى القلق قال : فرأيت الله تبارك وتعالى في النوم فوقفنى بين يديه وقال : يا ابراهيم ما استحييت منى تسألنى ان أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى ، وهل يسكن قلب المشتاق الى غير حبيبه ، أم هل يستريح المحب الى غير حبيبه ، أم هل يستريح المحب الى غير من اشتاق اليه ؟ فقلت : يارب تهت في حبك فلم أدر ما أقول (١)

ومن الأدب الصوفي ( أدب المناجاة ) وهو الادب الذى أنشأه الصوفية في مناجاة الله عز وجل والحديث اليه والاستغراق في خطابه ، هو أدب بليغ ، ولون من ألوان النثر جز طريف ، قد أتى الصوفية فيه بكل معنى جديد بديع فيه رقة العاطفة وصفاء الوجدان وشفافية الروح والخضوع الكامل لله تعالى (٢) .

ولقد ذكر ابن السراج في كتابه ( مصارع العشاق ) طرفا من أدب المناجاة نذكر منها قول رابعة العدوية (٣) : يا سيدى بك تقرب المتقربون في الخلوات ، ولعظمتك سبحت النيران ( الحيتان ) في

---

(١) مصارع العشاق ١/٣٩٥ .

(٢) دراسات فى التصوف الاسلامى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ١/١٣٧ ط دار الطباعة المحمدية .

(٣) هى السيدة أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية الصالحة المشهورة وتوفيت سنة ١٣٥ هـ .

البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الامواج المتلاطمات ، أنت الذى سجد لك سواد الليل وبياض النهار والفلك الدوار والبحر الزخار والقمر النوار والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار لانك الله العلى القهار » (١) .

ولا شك أن هؤلاء المتصوفين قد وصلوا الى مرحلة الفناء الكامل ، وهى وصول النفس الى مرتبة شهود الحق بالحق ، وانكشاف رؤية العوالم الخفية والاسرار الربانية وتوالى الانوار مع اللذة الرحمانية بالانس السر الزكى في الجلوة والحضرة الالهية ،وتلك المرحلة لا تكتب ولا توصف لانها خارجة عن نطاق التصور العقلى والتخيل الانسانى ، فهناك يشاهد المحب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢) .

**سادسا : الأحكام النقدية في كتاب مصارع العشاق :**

كان النقد القديم يعتمد على الفطرة والذوق ، فسلامة الفطرة في الابداء جعلهم يرجعون في كل ما يتصل بأدبهم الى السليقة ، ويصدرون عنها في احكامهم التى تدور حول ما استحدثوا من أنماط أدبية ، وتذوق الادب عندهم مرده الى الطبع الذى نشأوا عليه والى البيئة التى انتموا اليها ، وهى بيئة ذات طابع عربى أصيل ، ولهذا جاء نقدهم مطابقا لفطرتهم وبيئتهم وصادرا عن أذواقهم وتأثرهم بالجمال ومن ثم وجد في العصر الاموى طائفة من النقاد الذواقين ، وهم الذين ولدت معهم مواهبهم الفنية ، فشبوا على الابداع للصور البيانية الخلابة لما يجدون في أعماقهم من قوة في الاحساس والشعور ، فالذواقون من نقدة هذا العصر هم

(١) مصارع العشاق ١/٣٩٢ .
(٢) دراسات في التصوف الاسلامى ٢/٢٨ .

الادباء ومن يستشعرون جمال الادب بأذواقهم المثقفة (١) ، ولم يتغير اسلوب النقد عن ذلك في صدر الدولة العباسية • ولقد وجدنا طائفة من الاحكام النقدية في كتاب مصارع العشاق تتضمن رأيا منذ نشأته ، ومن تلك الاحكام النقدية التى ذكرها ابن السراج ما حدث به غيلان بن الحكم (٢) قال : وفد علينا ذو الرمة ونحن بكناسة (٣) الكوفة فأنشدنا قصيدته الحائية ، فلما انتهى الى قوله :

اذا غير النأى المحبين لم يكد  رسيس الهوى من حب مية يبرح (٤)

قال له ابن شبرمة : أراه قد برح ، ففكر ثم قال : لم أجد رسيس الهوى من حب مية يبرح ، فرجعت بحديثهم الى أبى الحكم البخترى بن المختار (٥) فقال : أخطأ ابن شبرمة (٦) حين رد عليه ، وأخطأ ذو الرمة حيث قبل منه ، انما هو كقول الله تعالى « اذا أخرج يده لم يكد يراها » أى لم يرها ولم يكد (٧) •

وهو نقد للاسلوب الشعرى وفق معايير اللغة ، وهو لون من

---

(١) انظر مذاهب النقد وقضاياه للدكتور عبد الرحمن عثمان ص ٢٤٧ ط الاعلانات الشرقية ١٩٧٥ •

(٢) غيلان بن الحكم بن البخترى بن المختار العبدى من عبد القيس شاعر كوفى من شعراء صدر الدولة العباسية •

(٣) كناسة الكوفة : محلة بالكوفة •

(٤) رسيس الهوى : أصله ومسه •

(٥) أبو الحكم البخترى بن أبى البخترى العبدى الكوفى ، وهو راوية ثقة من الثقات توفى سنة ١٤٨ هـ •

(٦) هو عبد الله بن شبرمة الضبى فقيه الكوفة وقاضيها ، كان ناسكا عفيفا صارما عاقلا جوادا ، وتوفى سنة ١٤٤ هـ •

(٧) مصارع العشاق ١/٢٦ •

ألوان النقد له قواعده ومقاييسه في الاسلوب والمعنى ، وعلى مثل هذا اعتمد بناء النقد بعد ان صار علما له مبادئه وقوانينه .

ومن أجمل ما أورده ابن السراج من أخبار النقد وأحكامه ومجالسه تلك الاخبار التى تدور حول مجالس سكينة بنت الحسين بن على ، ولهذه الاخبار دلالتها على ازدهار الحركة الادبية حتى لتعنى بها النساء ، كما تدل على ان الشعر كان فنا كريما عنى المجتمع في ذلك العصر حتى لا تجد مثل سكينة في نسبها الشريف وورعها وتقواها حرجا في أن تعنى وتشارك فيه ، ولو كان شعر عاطفة وغزل (١) .

ومن هذه الاحكام النقدية التى قالتها سكينة بنت الحسين ما رواه ابن السراج عن الاصمعى عبد الملك بن قريب عن أبيه عن لبطة بن الفرزدق بن غالب حين اجتمع الفرزدق وجرير وجميل بن معمر ونصيب مولى عمر في بيت سكينه بنت الحسين ، والحديث طويل ولكن نكتفى بذكر قول سكينه حينما أنشدها جرير أبياته ، ونقدته في قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس نا وقت الزيارة فارجعى بسلام

فقالت سكينة : ما أحسنت ولا أجملت ولا صنعت صنيع الحر الكريم ، لا ستر الله عليك كما هتكت سترك وسترها ، ما أنت بكلف ولا شريف حين رددتها بعد هدوء العين ، وقد تجشمت اليك هول الليل ، هلا قلت :

طرقتك صائدة القلوب فمرحبا نفسي فداؤك فادخلى بسلام (٢)

---

(١) درسة الحب فى الأدب ص ٣٨٧ .

(٢) مصارع العشاق ١٨٧/٢ وانظر الخبر فى كتاب ( سكينة بنت الحسين ) للدكتورة بنت الشاطئ ص ٢٢٦ وما بعدها دار الهلال والأغانى ١٦/١٦٢ وما بعدها ط وزارة الثقافة القاهرة .

ومن أخبار النقد التى أوردها ابن السراج في مجال الغزل العذرى أن كثيرا صاحب عزة وقف على جماعة يفيضون فيه وفي جميل ، وفي أيهم أصدق عشقا ، ولم يكونوا يعرفونه بوجهه ، ففضلوا جميلا في عشقه ، فقال لهم كثير : ظلمتم كثيرا كيف يكون جميل أصدق عشقا من كثير ، ولما أتاه عن بثينة بعض ما يكره حيث قال :

رمى الله في عينى بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح (١)

والقوادح ما ينقبها ويعيبها ، وكثير أتاه عن عزة ما يكره فقال:

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

قال كثير : فما انصرف الناس الا على تفضيلى (٢) .

وعلى الرغم من أن أحكام سكينة بنت الحسين وكثير عزة تتصل بمقاييس العشق والهوى ، ولكنها تتصل باللغة ودلالة الالفاظ انما تحمل عواطف الشعراء وانفعالاتهم وأحاسيسهم وما يستقر في وجدانهم . هكذا طفنا بأدب ابن السراج البغدادى ، وادركنا مدى ما يتميز به من شاعرية ومقدرة على الابداع والتلوين والتصوير ،كما لمسنا مدى براعته في العرض والتنسيق والتبويب واختيار الاخبار الادبية والنصوص الشعرية في كتابه الخالد ( مصارع العشاق ) حيث قدم لنا من التراث العربى ثروة هائلة قيمة من الادب العربى الرصين الخالد .

رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما قدم لامته وعربيته ودينه ، وجزاه عنا خير الجزاء .

**دكتور / على محمد على طلب**
**المدرس بقسم الأدب بكلية اللغة العربية**
**بأسيوط**

---

(١) القذى : كل ما يقع فى العين من شىء يؤذيها . القوادح جمع قادح : كل ما يقع فى الأسنان والشجر ، والقادح أيضا السواد يظهر في الأسنان .

(٢) مصارع العشاق ١١٨/١ .